٢

المرأة وفن الرثاء
بين بكائية الزوج وفلسفة الحكمة

ثمة من يعيد ويقصر فن الرثاء على المرأة خاصة وهي بطبيعة الحال تتعرض بين كل فترة وأخرى ، في عصر تقلبت فيه الأمور بين ارتداد عن الدين نتج عنه حروب الردة ، وانقسامات حول الخلافة الإسلامية أدت إلى ظهور كثير من الأحزاب السياسية ، ومبادئ التزامية فرضتها ظروف الانتماء لحزب دون آخر .. مما جعل مشاهد القتلى أمام هذا المعترك الناتج بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم تزداد يوما بعد يوم .. فلم يكن المجتمع الإسلامي – حينذاك – قد وصل إلى ذروة تحضره، بل إن أركان الدولة بكل ما تحمله من مفاهيم لما تثبت بعد؛ فكان من الطبيعي تفجع المرأة بين الحين والآخر بأحد دعائمها في الحياة وخاصة " الزوج – الأخ – الابن " . ومن ثم فرضت عليها هذه الظروف طابعا مأساويا فجر فيها أدواتها الفنية ، وطاقاتها الإبداعية ، فسجل التاريخ ذلك، فلقى هذا التسجيل قبولا ورغبة في نفوس المحبين والمتحمسين للحدث ، ولم يلق قبولا عند البعض الآخر ..

إلا أننا إزاء هذه الأحداث نجد صدقا وإخلاصا في الجانب التصويري، وبعدا كبيرا عن الاصطناع ، فجاءت اللوحات التي ترسمها المرأة في قالب وصفي ترى بالجمال الفني ، ونشرت أدواتها الفنية فبرزت طيعة في يدها ، ولم تتخلى عنها – ونتيجة هذا الصدق جاءت الألفاظ سهلة

بسيطة مجسدة للحدث ، تدرك أن الكلمات تنساب وتجري على لسان الشاعرة أو الأديبة انسيابا سريعا نابعا من صدق الوقف وحرارته ..

إن الأمر أصبح تجسيدا للواقع الملموس والحياة الخاصة للشاعرة العربية القديمة وإذا كان البعض قد قصر فيه الرثاء على المرأة وأدبها فثمة سؤال يطرح نفسه .. هل هذا الأمر من خصوصيات المرأة دون الرجل؟

وإذا كان الأمر كذلك ، يتبادر إلى الذهن سؤال آخر ، وماذا نصنع في هذه المراثي الرائعة التي رثى بها الشعراء زوجاتهم – على وجه الخصوص – وأولادهم وإخوانهم ؟

أعتقد أن الأمر سواء بين الطرفين ، وإلا فماذا نصنع في مرثية جرير لزوجه ، ومرثية ابن الرومي في ولده الأوسط " محمد " ومرثية متمم بن نويره في أخيه مالك ، ودريد بن الصمة في رثاء أخيه عبد الله ، ولبيد بن ربيعة في رثاء أخيه أربد ، إن الأمر لم يتوقف عند ذلك بل وصل إلى رثاء الشخص لذاته كما نجد عند مالك بن الريب ، ورثاء المدن والممالك الزائلة .. أعتقد أننا بحاجة ماسة إلى إعادة قراءة أدبنا العربي ذلك المعين الذي لا ينضب ، ويحمل في طياته كل ما يسر النفس، ويؤنس وحدتها ، ويمدها بوافر من الفنون والآداب .

وعليه فإننا يجب أن ننطلق في دراسة فن الرثاء عند المرأة ، ونحن نحمل بداخلنا ما يهون علينا هذه المسألة ، فالمسألة لا تتوقف عند رثاء زوج أو ابن أو أخ ، إنما هي فلسفة خاصة ارتبطت بعوامل خاصة تجلت كلها عبر أطر مرسومة بقالب شعري أو نثري كما سنرى بعد ..

رثاء (الزوج / الأزواج) : -

كثيرة هي النماذج التي عبرت من خلالها الشاعرة عن فقدانها لزوجها وأخيها كالخنساء ، أو الزوج كليلى الأخيلية ... الخ .. ولكنني اخترت نموذجا فريدا قد تناولته بعض الدراسات أو لم تتناوله لندرته ، أو تناولته تناولا عابرا .. وهو رثاء " عاتكة بنت نفيل " لأزواجها الأربعة واحدا تلو الآخر .. ولسنا هنا في مجال عرض لمفهوم الرثاء لغويا ، أو بأنه فن من أقدم فنون العربية ، فهو شعر ممتزج بالعاطفة الصادقة الحزينة ، ذات التأثير القوي في نفوس المستمعين - قديما وحديثا - يقول الرافعي : " إن الشعر في الرثاء إنما يقال على الوفاء ، فيقضي الشاعربقوله حقوقا سلفت ، أو على السجية إذا كان الشاعر قد فجع ببعض أهله "(٢٨)

إن المرثاة الصادقة هي التي لا نكاد نشعر من خلال أبياتها أن قائلها قد بذل فيها أي جهد خاص من أجل خلق أجواء موسيقية معينة توظف لخدمة المعنى ..

إن رثاء الأهل في شعرنا العربي - على وجه العموم - كثير ونابض بالحياة ، وخاصة فيما يتعلق برثاء الزوج ، أما رثاء الأبناء فتجده أشد لوعة وألما وحرقة ..

وانطلاقا من مقولة الرافعي السابقة نجد " عاتكة بنت نفيل " قد تزوجت من أربعة أفراد، وهم على الترتيب : الأول : " عبد الله بن أبي بكر الصديق " رضي الله عنهما ، والثاني: " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه ، والثالث : " الزبير بن العوام " أما الرابع فهو " الحسين بن علي بن أبي طالب " .. ولو تتبعت الأسماء لوجدتها من الصحابة رضوان الله عليهم ،

ومن ثم فالشكل الرثائي هنا يمتزج بعاطفة دينية وفلسفة عقائدية ، فالمسألة لا تتوقف عند رثاء زوج بعينه بل تخطت هذا الحاجز ، فهو نموذج رثائي متعدد ينتقل من زوج إلى زوج .. وهذا بطبيعته يجعل النماذج تختلف في ملامحها من نموذج إلى آخر ، فلكلٍ صفات يختص بها وأمور يدافع عنها ، ولكنها في النهاية نماذج ذات صبغة خاصة لارتباطها بفلسفة خاصة ، إنها تجسد شكل العلاقة بين البطل الأساسي في هذا الموضوع وهو " المرأة " وأطراف الرثاء أصحاب المحاور المختلفة وهم الأزواج

عاتكة بنت نفيل ـــــ
- ـــ عبد الله بن أبي بكر " ت ١١ هـ "
- ـــ عمر بن الخطاب .
- ـــ الزبير بن العوام .
- ـــ الحسين بن علي بن أبي طالب .

النموذج الأول : (تقول عاتكة) : - (٢٩)

فللهِ عَيْنا مَنْ رَأى مثلَهُ فتىً
أكَرَ وأحْمَى في الهِياجِ و أصْبَرا
إذا شرَعتْ فيه الأسِنَّةُ خاضَها
إلى الموتِ حتى يترك الموت أحمرا
فآليتُ لا تنفكُ عيني سخينةً
عليكَ ولا ينفك جِلْدي أغْبَرا
مَدَى الدهر ما غنت حمامةُ أيْكَةٍ
وما طرد الليلُ النهارَ المنورا

وأول ما يطالعنا في هذه الأبيات صيغة التعجب " فلله عينا " والتعجب هنا يأتي من استعظام الحدث ، فهي ترجع الأمر إلى الله جل علاه، وانطلقت من إرجاع الأمر إلى الله إلى تعديد محاسن ذلك الزوج، فهو (فتى- لم يرى مثله - أكر وأحمى - في الهياج وأصبرا) فهي صفات تستحب في الزوج .. ككونه قويا مكرارا في وقت الحروب ، صاحب غيرة على دينه وعرضه وهو المقصود بـ (أحمى) من الحماية أو الحمية وذلك في الهياج ، وأصبرا بمعنى أنه ذو صبر ومتانة وغير جزع ، وكل هذه المعاني الواردة في البيت الأول أتبعتها بالبيت الثاني متممة لمعاني البيت الأول ومكملة لمعاني الوصف والمحاسن ، فهو يتعدى الناس في الحرب ورمحه يسبق الرماح ولا يتعداه أحد ، مقاتل شرس ، لا يترك الساحة في وقت الشدة.. " والعرب تصف الشدة بالحمرة فيقولون : ميتة حمراء ، وسنة حمراء ، حتى وصفوا الشيء تتكلف في طلبه المشاق بالحمرة ، في مثل قولهم : الحُسن أحمر ، أي طلب الجمال تتكلف فيه المشاق.."(٣٠)

ثم انتقلت من تعديد محاسن الزوج إلى وصف حالتها وما ستقدم عليه نتيجة فقده .. وبطبيعتها الأنثوية تعبر عن آليات المرأة التي تظهر في مثل هذه المواقف على النحو التالي : " لا تنفك عيني سخينة " أي استمرارية البكاء ، ويجب أن نربط هنا بين الواقع النفسي والبعد الاجتماعي فالواقع النفسي يتمثل في شدة الحزن ، أما البعد الاجتماعي فيتجه إلى إبداء شكل من أشكال الطقوس الجنائزية المتمثلة في البكاء بشكل قد يثير الانتباه أو يظهر شفقة من الآخرين ، وجريا على السنن المعهودة ، فهي محاولة إظهار المرأة لنفسها بعدم اهتمامها بأنوثتها أو جمالها ، وهذا يتمثل في قولها (لا ينفك جلدي أغبرا) ..

وتستمر لوعة الفراق ، وشدة الحزن ، فلم تعد تفرق بين الأمور،فهي لا تتصور أن ثمة حمامة ستغني على أيكها حزنا عليه ، وهنا محاولة لإظهار شعور جمعي لا يقف عند حدود الفرد ، بل يتخطاه إلى كافة المحيطات البيئية .

وتأتي النهاية الطبيعية المجسدة لقيمة الحدث (وما طرد الليل النهار المنورا) فهي جملة تبرهن على أن هناك من مات ولم يذكر أما هو فأعماله ناصعة بيضاء كضياء النهار الذي لا يكمن أن يمحوه سواد الليل ..

النموذج الثاني

أما النموذج الثاني فهو الذي قالته في رثاء زوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. وتمضي فيه على غرار رثائها السابق لزوجها الأول.. وكأن القوالب التعبيرية الخاصة بفن الرثاء عبارة عن مجموعة من المداميك التعبيرية الثابتة مضمونا المختلفة شكلا (فالبكاء – النحيب – التفجع – الشعور بالمرارة والأسى – الحزن الشديد) كلها ثوابت في المراثي إلا أن أنماط أو أشكال التعبير عنها يختلف من فرد إلى آخر ..

تقول عاتكة : – (٣١)

عَينُ جُودِي بعَبرَةٍ ونَحيبِ
لا تَمَلِي على الإمام النَجِيبِ
فَجَعتْنا المنونُ بالفارس المعـ
ـلم يومَ الهياج والتلبيب
عصمةُ الدين ، والمعينُ على الدهـ
ر ، غياثُ المنتابِ والمحروب

قُلْ لأهْلِ الضَرَاءِ والبؤس موتوا

قد سقته المنـــونُ كأس شَعُوب

والبداية هنا عكس النموذج الأول ، فقد بدأت بحديثها إلـــى نفســـها الموجه في (عين) وحذفت أداة النداء (يا) لأن الحدث قريـــب مـــن قلبهـــا ويعتصر فؤادها وأتبعت (العين) بفعل الأمر (جودي) والغرض مـــن الجـــود ليس الكرم إنما هو الزيارة المستمرة في البكاء (جودي بعبرة) وليس بكاء أو دموعا سلبية أي مصحوبة بإيقاعات أخرى تتمثل في (النحيـــب) وهـــو نحيب مستمر وغير متوقف ليس فيه ملل (لا تملـــي) وكـــل ذلـــك لتعلقهـــا بفقيدها الذي وضعت له مجموعة من الصفات في الأبيات هـــي (الإمـــام – النجيب – الفارس – المعلم) ...، وفي البيت الثاني تتجسد الواقعة وأثرهـــا النفسي عليها وذلك في قولها (فجعتنا) وهذا بدوره يعطـــي مؤشـــرا لعـــدة أمور، أولها أن الأمر كان غير متوقع ، الثاني (أن الفقيد ذو مكانة بارزة) الثالث : هول الكارثة وأثرها على المســـتويين الأســـري والاجتمـــاعي أو القومي .. ففي استشهاد عمر " رضي الله عنه " كارثة من كوارث الـــزمن الكبرى ومن هو " عمر " إنه [عصمة للدين] بالإضافة إلى أنـــه [المعـــين على الدهر] والذي يمد يده على من نزلت به نوائب الدهر ومن سلب مالـــه [غياث المنتاب والمحروب] ، وتأتي النهاية موجهة إلى كل مـــن يضـــمر ضرا أو بؤسا بالدعاء عليهم بالموت (موتوا) لأنهم ذو بأس علـــى الأمـــة وأنهم وإن كان قد عالجوا " عمر " بقتله فقد أذاقوه " كـــأس شـــعوب " أي وانته منيته وهي نهاية كل حي ..

ونلحظ هنا أن شكل الرثاء قد اختلف إلا أن المعاني تكاد تكون واحدة..

النـــموذج الـــثالث

تقول عاتكة في ذلك النموذج متعرضة لرثاء زوجها " الزبير بـــن العـــوام رضي الله عنه " : - (٣٢)

غـــدر ابنُ جرموزٍ بفارسِ بُهْمَةٍ

يوم اللقـــاء وكان غيرَ مُعَـــرَّدِ

يـــا عمرُو لو نبهتـــه لوجدتـــه

لا طائـــشا رعش الفؤاد ولا اليد

شلت يمينـــك ، إن قتلت لمسلما

حلـــت عليـــك عقوبةُ المعـــــتمد

إن الزبيـــر لـــذو بلاء صـــادق

سمح سجيتـــه ، كريم المحتـــد

كـــم غمرة قـــد خاضها لم يثنه

عنها طرادُكَ يا ابن فَقْع الـــقَرْدَدِ

فاذهب فما ظفرت يداك بمثلـــه

فيما مضى ممـــن يروح ويغتدي

لا تمثل الأبيات " مرثاة " بالمعنى المباشر ، إنمـــا تعقـــد الشـــاعرة مقارنة بين طرفين أحدهما هو الزوج وآخرهما هو القاتل الغـــادر ، وهـــذه المقارنة تكشف عن المكنون النفسي للشاعرة التي حشدت كافـــة المعـــاني التي ترفع من قيمة الزوج وجمعت كافة المعاني التي تزدري مـــن القاتـــل،

ناهيك عن الجمل الدعائية أو الجملة الدعائية التي تدعو من خلالها على القاتل بأن تشل يده ..

والأبيات هنا معكوسة مقصودة ، فلم تبدأ بوصف زوجها أو إظهار النحيب عليه ، وإنما بلغة مخالفة فيها نوع من السرد القصصي، وكأنها تروي حكاية أو تشرح مشهدا ، أو تذكر موقفا سينمائيا ، فاستخدمت طريقة السينمائيين وهي طريقة (الفلاش باك) فذكرت الغدر والقتل ثم بدأت في عرض الأحداث ..

بمعنى آخر ذكرت مشهد الجريمة وطريقتها ثم بدأت في سرد وتفصيل الوقائع ..

فيبدو الحزن هنا بمثابة رد فعل لأثر الجريمة فهذا المقتول لم يواجه موقف القتل بالشرف العربي المعهود ، إنما جاء بطريق الغدر ، كما أن فروسيته وشجاعته تفرض عليه الصمود في الميدان وهو لا يدري من أين يأتي إليه القتل ، وسر ذلك يعود إلى أن الفوارس أو المقاتلين يهابونه ولا يدرون كيف يصلون إليه ، ومما يؤثر عنه أنه ليس (معرد) أي لا يفر من ميدان القتال .

وكان هذا النداء الذي يحمل طابعا تحسريا على الفقيد بقولها (يا عمرو لو نبهته) فالنداء للتحقير وتقليل القيمة هنا فأتبعته بحرف (لو) ويأتي الفعل (نبهته) ليحمل كافة معاني الجبن وكل دلالات الغدر .. فمعنى التنبيه هنا هو أخذ الحذر ، فإذا ما أخذ حذره (أي الزبير بن العوام) ما استطاع (عمرو بن جرموز) قتله .. وكأن الشاعرة هنا أرادت أن تسجل بكلماتها موقفا تاريخيا يظل لفترات طويلة خير شاهد على جبن وغدر عمرو بن جرموز .

ولا تتخلى المرأة عن أنثويتها المعهودة من خلال إطلاق بعض العبارات أو الأدعية التي تستخدمها المرأة العربية حينما تصاب بمكروه أو سوء ، فنجدها تستخدم الأسلوب الدعائي الذي غالبا ما يستخدم عند النساء بشكل عام ، وقلة من الرجال بشكل خاص في قولها (شلت يمينك) واستوجب الدعاء الفصل في القضية ، فأصبحت في نظرها قتل عمد لأنه جاء كما يقول أهل القانون مع سبق الإصرار والترصد ، ومن ثم فهي تطالب بالقصاص منه ، أو حكمه في ذلك بأن يقام عليه الحد . وينتهي إلى هنا ذلك المشهد الثاني وهو عرض محاسن ذلك الميت أو (القتيل) بأنه (صاحب بلاء – صادق – سمح سجيته – كريم المحتد) وهى كلها أوصاف تكرر عند غالبية الشعراء من الجنسين، فلا يحيد عنها أحد ، فهي مداميك تعبيرية ثابتة لا مفر منها، بل يستحسن الزيادة فيها، مما دفع الشاعرة إلى ذكر شجاعته في الحروب باستخدام لفظة (كم) الخبرية التي توضح كثرة المعارك التي خاضها (كم غمرة) وتأتي (قد) التي تفيد التحقيق والتوكيد ، وتبرهن على يقينيه ذلك الحدث (قد خاضها) وهي معارك مقللة بالنصر لم يعبأ فيها بأحد لقوته وشجاعته ، وتأتى الجملة الاستهزائية التي تقلل من قيمة القاتل (يا ابن فقع القردد) ، وإذا كان فقع القردد هو ضرب من أردأ الكمأة ، فإن القردد هو الأرض الفقر الخالية ، وهذا التصوير نابع من " تشبيه الرجل الذليل بالفقع ، فتقول: هو فقع قرقر ، وهو أذل من فقع قرقر"[٣٣] ويأتي البيت الأخير مجسداً لحالة اليأس والإحباط مما أصابها، وعجزها عن رد ما حدث أو الانتقام لزوجها .

النموذج الرابع

أقدمت فيه على رثاء زوجها الحسين بن على .. في قولها : [٣٤]

وا حسينا ، فلا عدمت حُسَيْنَا

أقصدته أسِنَّـةُ الأعـــداءِ

غادَرَتْه بكربـــلاءَ صريعـــا

جادتْ المزن في ذرَى كربلاءِ

وهي أقل الأبيات التي ذكرتها في رثائها لأحد أزواجها كمـــا روى صاحب الحماسة البصرية ، إلا أنها جمعت فيها مجموعـــة مـــن المعـــاني المتعددة والتي تبرهن من خلالها على شدة لوعتها وجزعها مما أصابها .. إن الشاعرة تعيش لحظة انهيار نفسي كامل ، فهاهو الزوج الرابـــع يلقـــى وجه ربه لدرجة أوصلت عبد الله بن عمر إلـــى أن يقـــول : " مـــن أراد أن يرزق الشهادة فليتزوج عاتكة بنت نفيل " [٣٥]

فالندبة في أول البيتين (وا) وما يتبعها من تفجع وندم (واحســـينا)، ثم الأسى الظاهر من قولها (فلا عدمت حسينا) يوحي بمدى ما تعانيه من آهات مخنوقة في نفس الشاعرة ، ويأتي الشطر الثاني مـــن البيـــت الأول معبرا عن مدى الفجيعة بهذا الاستفهام الاستنكاري المعبر عن عدم تصديق الشاعرة لما حدث (أقصدته أسنة الأعداء) .. وتأتي لحظة تصديق ما حـــدث (غادرته بكربلاء صريعا).. فهو رد على سؤالها السابق هل قتلته ســـيوف ورماح أعدائه .. فتكون الإجابة لقد تركته هذه السيوف صريعا إذ أصـــابته فقتلته .. ويأتي الشطر من البيت الثاني يحمل معنيين في قولهـــا (جـــادت المزنُ بقرى كربلاء) المعنى الظاهر منه هو سقوط المطـــر مـــن الســـحب

البيضاء المحملة بالمياه ، أما المعنى المستتر أو الخطاب الخفي هو حزن السماء على مقتل الحسين ، وكأن السماء تبكي لفقده الحسين ، وتحزن على فراقه .. إننا أمام هذا النموذج الرثائي ذو الطبيعة الخاصة ، لا نملك إلا أن نقول إن المرأة العربية بوصفها عنصرا اجتماعيا في المقام الأول سرعان ما تبدو عاطفتها جياشة بالبكاء إزاء الأحداث التي تمر بها ، ومن ثم ارتبط فن الرثاء بها بشكل وفير وإنتاج غزير في هذا الجانب .. فتظهر غير متماسكة تسبقها عبراتها التي تحمل مظهرا اجتماعيا يمثل شكلا من أشكال الحزن عند المجتمع العربي لا في عصرنا القديم فقط وإنما في حياتنا المعاصرة حتى اللحظة التي نحياها ، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مدى توافق عواطف المرأة مع المجتمع نفسيا واجتماعيا .

كما أن المرأة بما تحمله من آلام وضعف لم تجد وسيلة غير بكاء العين ، لما ما للعين من ظهور واضح على المستويين الاجتماعي والنفسي؛ فعلى المستوى الاجتماعي هو شكل من أشكال التعبير المجتمعي، وعلى المستوى النفسي ، فحينما نبحث في أدب المرأة نجد أنها تتكئ على إظهار الصيغ البكائية .. ولكن لماذا تصر المرأة على مخاطبة العين ، وتلح عليها في الاستمرار بالبكاء ؟ ذلك لأنها الحاسة الوحيدة التي تنطق حتى وإن صمتت الأصوات .. يقول الشاعر: (٣٦)

العين تبدي الذي في نفس صاحبها

من المحبة أو بغض إذا كانا

والعين تنطق والأفواه صامتة

حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

أو قول آخر : (٣٧)

وفي العيـــن غـــنى للمـــر ء أن تـــنـــطـــق أفـــــواه

ولعل هذا هو سر مخاطبة الشاعرة للعين لما لها من بعد آخر يتمثل في صدق المشاعر التي تخرج من النفس ببساطة وعفويـــة وتلقائيـــة دون تكلف . فالإنسان قد يتحكم في كلماته أو فـــي بعـــض مشـــاعره ، ولكـــن انسيابية الدموع تخرج بفيض من المشاعر التي لا يقوى على إنســـان مـــا على التحكم فيها .

ولا يمكن قصر البكاء على المرأة دون الرجل فكلاهما يشترك في ذلك ..

٣

الرثـاء ومخـالفـة النسـق الاجتـمـاعـي

يبدو من النموذج المتعدد الذي ذكرناه سابقا أن المرأة حريصة على ذكر محاسن أزواجها ، وفي هذا موافقة للأعراف والقيم الاجتماعية ، فالعلاقة الزوجية بكل ما تشمله من معني القداسة تفرض نمطا تكامليا بين الطرفين ، فيبدو حرص كل منهما على الآخر، والفجع والحزن لفقده ، واحترام كل منهما لمشاعر وحقوق الآخر .

ولكن إذا جاء الرثاء مخالفا لذلك النسق الاجتماعي ، أي أن الرثاء هنا ليس على النسق الماضي ، فالزوجة هنا ترثي زوجا لم يدخل بها ، وبالتالي لم تتعرف عليه من قرب ، وإنما بمجرد السماع ، وهذا يوضح مدى حرص الزوجة برجل يحمل صفات بطولية .

ومن هنا جاء قول هذه المرأة الشريفة التي ترثي زوجها ، ولم يكن قد دخل بها ، وذلك في قولها : (٣٨)

أبكيكَ لا للنعيم والأنس

بل للمعَالي والرُمح والفَرَسِ

أبكي على فارس فُجعتُ به

أرْملتي قبل ليلة العُرْسِ

يا فارساً بالعَراءِ مُطَرَحاً

خانته قُواهُ مَعَ الحَرَسِ

مَنْ لليتامى إذا هُمُ سَغِبُوا

وكلِ عانٍ وكُلِ مُحْتَبَسِ

أم مَنْ لبرٍ ، أم مَنْ لفائدةٍ

أم من لذكرِ الإلهِ في الغَلَسِ

إن الرثاء هنا مخالف للنسق الاجتماعي المعهود فلم يكن رثاءً مبنيا على معاشرة زوجية تفرض ذلك ، وإنما هو رثاء يتوجه فيه الراثي إلى المرثي بمجموعة من الفضائل والمثل ، وقد يكون أقرب إلى المدح من الرثاء ، وهي هنا تذكر مجموعة من الفضائل الإنسانية التي قد تجري عليها أحكام التغير والتعديل ..

ومن ثم فقد اتجهت إلى تمجيد فروسيته ، وإغاثته للملهوف ، وكرمه لليتامى ، فهو رجل بر وتقوى .

إننا هنا إزاء نص إبداعي تأثرت كل كلمة فيه بجوانب انفعالية متعددة عند الشاعر ، تعلو وتهبط تبعا لنوعية الموقف وتغير صيغة الخطاب، وقد تستخدم كافة الألفاظ المباشرة ، ووسائل التجسيد التي اعتمدت فيها (الشاعرة) على الصور الحسية التي تكاد تنطق من خلال تشبيهاتها ..

وعليه فقد اتجهت الشاعرة إلى الرثاء الممتزج بنوع من التمجيد والوصف ، فبدأت أبياتها جريا على الشكل المعهود من قبل بالبكاء ،

وتقصد من خلاله ليس الأسى على رحيله فقط ، أو البكاء لفقده فقط . إنما البكاء يتجلى في فقد رجل من أصحاب المعالي بما عرف عنه من رمى بالرمح وفروسية غير مسبوقة ..

ومن ثم جاءت جملة (أبكيك) لتمثل صورة من طقوس الحزن عند المرأة ، وأتبعت هذا البكاء بنفي (لا للنعيم والأنس) تبرهن من خلاله على أن البكاء ليس في حد ذاته من أجل النعيم أو لذة الأنس التي حرمت منها حيث إنها لم تدخل به ويدخل بها ، وهذا يجعل من رثائها مخالفا لكل أنواع المراثي .. إنما جاءت المرثية تعبيرا عن فقد لكافة أشكال المعالي والبطولة والفروسية التي تجسدت في فقيدها الذي لم تنعم به ..

وكالعادة يحدث الفراق نوعا من الألم ، وتحدث الصدمة نوعا من الفجيعة ، يحدث عنها بكاءٌ لاإراديّ ، ويتجلى ذلك في قولها (أبكي على فارس فجعت به) ، فانطلقت من هذه المعاني التي توجت بها جبين الفقيد إلى الحديث إلى النفس ، فهنا تحول في صيغة الخطاب ، فالصدمة كانت في فقدها لكافة المعاني السابقة ، بل والأمرُ هو أنها أصبحت في نظر المجتمع (أرملة قبل ليلة العرس) وهي اللحظة التي تنتظرها كل فتاة .

ولإدراكها بأن الفقيد لا يعود فجاء حرف النداء تعبيرا عن أمر واقع وملموس ، تجسد في موته ورحيله فهي تنادي من لا يعود ، فتذكر ما كان فيه (يا فارسا) ترك بالعراء في ساحة القتال مطروحا لا حراك فيه وتعلل- كعادة النساء – طريقة مقتله بأنها خيانة من قواده وكافة حرسه ، وبرحيله رحلت معه مجموعة من القيم والفضائل جاءت حسب ترتيبها في الأبيات (من لليتامى) في حالة سغبهم (جوعهم) ، (وكل عان وكل محتبس) من سيفك قيد الأسير من أسره ، ومن يدفع دية كل من هو في الحبس أو

يخلص من سجنه .. (أم من لبر – أم من لفائدة – أم من لذكر الإلـــه فـــي الغلس) ..هذه المجموعة من المعاني التي تدلل على قيامه بها ، وهي على كثرتها لم تذكر منها سوى القليل ، وانظر إلى تكرار الأداة (أمْ) وما توحيـــه من قلة داخل كثرة .. وكأن لسان حال الشاعرة يقول إن مـــآثره لا يمكـــن حصرها ..

إن الشاعرة هنا قد ضربت مثلا للوفاء ولاحترام العهود والمواثيق ؛ ليس على مجرد الفعل الواقع ، وإنما حتى على مجرد الكلمة والعهد .